المبالغة في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

دكتور / محمد محمد الطاهر محمد

المقدمة

إن المتأمل لكتاب الله تعالى يجده مليئاً بالأسرار والمعجزات التي حواها القرآن العظيم ، والتي يجب على المسلمين الذين فتح الله عليهم في فهم هذه الأسرار لكشف عنها وإظهارها .

ولقد فهم المسلمون الأول هذا التوجيه فعكفوا على خدمة كتاب الله تعالى كل في تخصصه ، وما زال وسيظل كتاب الله تعالى يحوي الكثير من الأشياء التي يسخر الله عز وجل لها من يجلبها " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ " (١) .

وتجد الأبحاث القرآنية تتنوع وتتعدد ، فهذا يدرس أسلوب القرآن ، وذاك يدرس معانيه وآخر يدرس ألفاظه .. الخ .

وهذا البحث الذي بين أيدينا وهو : " المبالغة في القرآن الكريم " ، وجدت بعض الباحثين ينكر وجود المبالغة في القرآن ، حيث أقاموا هذا الرأي بناءً على أن القرآن العظيم يقول " الحقيقة " وأن المبالغة نوع من المجاز وهم ينكرون وجود المجاز في القرآن العظيم ، ومن هؤلاء العلماء الرافضين حازم القرطاجني ، وتبعه بعض العلماء في العصر الحالي منهم الدكتور المطعني ، وسيأتي تفصيل لرأيهم والرد عليهم إنشاء الله .

ولكن المتأمل لكتاب الله تعالى يجد فيه ألوانا عديدة من المجاز استدعاها المقام وتطلبها السياق ، ومنها المبالغة ، ومطابقة الكلام لمقتضى الحال بلاغة جمة فلما كان السياق والمقام يتطلبان مجازاً سواء أكان هذا المجاز مبالغة أم استعارة أم كناية أم غير

---

(١) فصلت : ٥٣ .

ذلك، أقول : متى كان المقام والسياق يتطلبان ذلك وجاء الكلام مشتملاً عليه فهذا هو البلاغة التي ترفع الكلام وتسمو به .

والقرآن العظيم جاء بلسان عربي مبين ، نزل به الروح الأمين على أشرف خلق الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل بلغة العرب، واشتمل على ما اشتمل عليه كلامهم من فصاحة وبلاغة وتفوق فكان إعجازاً لهم وتحديا وتفوقاً عليهم .

لذا تجد المبالغة في القرآن الكريم موجودة وواضحة فلا مجال لإنكارها ، وهي في أحسن مواقعها وأشرف أحوالها ، تخر لها الجباه ، وتخشع لها القلوب وهي لون من ألوان الإعجاز القرآني .

وكل ذلك كان دافعاً لي لاختيار هذا الموضوع داعيا الله العزيز الحكيم أن يوفقني إلى خدمة كتابه ونصرة دينه والله المستعان .

المبالغة في القرآن الكريم

دراسة بلاغية

المبالغة في اللغة تفيد الوصول والانتهاء ، تقول : بلغ فلان أمره أي نال مراده ، وفي القرآن الكريم : " وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ " [١] أي وصل إلى هذه السن ، وقوله تعالى : " **وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ** " [٢] ، أي وصلوا إليه وقوله تعالى : " **حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** " [٣]، وفي المعاجم اللغوية وجدت أن الكلمة وتصريفاتها تفيد الوصول والانتهاء مع الزيادة والتوكيد ، ففي لسان العرب : " بالغ يبالغ مبالغة وبلاغا إذا اجتهد في الأمر، والمعنى في الحديث : كل جماعة أو نفس تبلغ عنا تذيع ما نقوله فلتبلغ ولتحك ، والمبالغة أن تبلغ في الأمر جهدك ويقال : بلغ فلان أي جهد ، وبالغ فلان في أمري إذا لم يقصر فيه " [٤] ، وفي الصحاح : " وشيء بالغ أي جيد ، وقد بلغ في الجودة مبلغا ، وبالغ فلان في أمري إذا لم يقصر فيه " [٥] ، وفي المعجم الوسيط : " بالغ فيه مبالغة وبلاغا : اجتهد فيه واستقصى وغالى في الشيء " [٦] .

والمعنى المفهوم من المادة ودورانها أنها تفيد الوصول والانتهاء "بلغ " وإذا قلت بالغ فإنك تريد الزيادة على المفهوم السابق، ومنه المبالغة وهي الزيادة على المطلوب .

" اعلم أن المعنى إذا زاد عن التمام سمي مبالغة ، وقد

---

(١) يوسف : ٢٢ .
(٢) النور : ٥٩ .
(٣) الأحقاف : ١٥ .
(٤) لسان العرب ٤٢٠ ، ٤٢١ / ٨ .
(٥) الصحاح ١٣١٦ / ٤ .
(٦) المعجم الوسيط ٧٢ /١ .

اختلفت ألفاظه في كتبهم فسماه قوم : الإفراط والغلو والإيغال والمبالغة ، وبعضه أرفع من بعض ، كما قال زهير :

كأن فتات العهن في كل منزل

نزلن به حب القنا لم يحطم

كأنه تم الكلام عند قوله : حب القنا : ثم قال : لم يحطم لأنه أشد لحمرته " .

وقد عرفها بعضهم بقوله : " أن تثبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره إما على جهة الإمكان أو التعذر أو الاستحالة " [١] .

والمبالغة تدخل في جل المعاني التي يراد التعبير عنها مثل المدح والذم والرثاء والفخر .. وغيرها .

ويلحظ أن كل مبالغة تفيد التوكيد لأنها تفيد الزيادة على المعنى المطلوب وهذه الزيادة هي التوكيد .

وفي بغية الإيضاح عدَّها المؤلف من علم البديع حيث عرفها بقوله : " والمبالغة أن يدعي لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدا مستحيلاً أو مستبعداً لئلا يظن أنه غير متناه في الشدة أو الضعف"[٢]

ولكن يلحظ أن قوله : "يدَّعي" يكاد يكون في غير موقعه حيث إنها دعوى وليست حقيقة ، وهذا الإدعاء لا يندرج تحته كل أنواع المبالغة ، فبعضها يكون حقيقة ولكنها أقرب إلى الخيال والادعاء .

---

(١) الطراز : ٤٥٥ .

(٢) بغية الإيضاح ٤ / ٤٠ .

فمثلاً في قوله تعالى : " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يوم ترونها تذهل كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** " [١] هذه الآية الشريفة تسوق لنا أهوال يوم القيامة وتلك الأهوال رغم ما فيها من وصف ومبالغة وتأكيد لثقل هذا اليوم وهيبته فإن ذلك واقع حقيقة وليس ادعاءً .

وقوله تعالى : " **فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ** " [٢] هذه الآيات الشريفات تحكي ما يكون في هذا الهول العظيم وما تحكين تلك الآيات كائن وواقع فعلا حقيقة وليس ادعاءً ، ومن ثم فهي واقعة وخارجة عن إطار المبالغة .

وعلماء النحو واللغة عندما درسوا المبالغة وضعوا لها صيغاً معينة قالوا إنها تفيد الزيادة والتكثير، مثل فعول ، فعيل ، فعَّال ، ومفعال ، وفعيل .. فهم درسوها من زاوية ضيقة ، حيث إنهم قالوا إن تلك الصيغ قد تعمل عمل الفعل ، وذلك دون أن يتعرضوا لمحاسن المبالغة الموجودة في تلك الصيغ ، أما البلاغي فإن دراسته للمبالغة يجب أن تجتاز هذا الحاجز الضيق والنظرة المحدودة ، وعلى البلاغي أن يبحث فيما وراء التعبير بالمبالغة من معان مهمة وأغراض جليلة استدعت المجيء بهذه المبالغة .

إذاً هناك فرق كبير بين المبالغة في الصيغ ، والمبالغة الاصطلاحية عند البلاغيين والأدباء .

---

(١) الحج ١ ، ٢ .
(٢) سورة عبس ٣٣ : ٣٧ .

ولذلك فقد اختلفت آراء البلاغيين في قبول المبالغة وردها، ومدى صحة ورودها في القرآن الكريم من عدمه على الوجه الذي سأوضحه فيما يلي : ــ

آراء العلماء في المبالغة من حيث القبول والرد : ـ

أ ـ الرأي الأول :

يرى بعض العلماء أن المبالغة لا تعد من محاسن الكلام، ولا من فضائله ، ويقولون : إن خير الكلام ما خرج مخرج الصدق من غير إفراط ولا تفريط ، والمبالغة يوجد بها إغراق وغلو ، وأيضا فإن المبالغة يستخدمها في رأيهم من عجز عن التعبير بالمألوف والمعهود من الكلام فهو يستخدم المبالغة ليسد خلل بلادته بما يظهر فيها من التهويل ، ولهذا فهي قد تصل بالكلام إلى حد الاستحالة [١]. وعلى رأس هؤلاء الرافضين حازم القرطاجني وحجتهم في ذلك أنها كذب محض وهم مؤمنون أن خير الشعر أصدقه .

يقول حازم القرطاجني : " إن العلماء بصناعة البلاغة متفقون على أن ما أدى إلى الإحالة قبيح ، وقد خالف هذا جماعة من لا تحقق عنده في هذه الصناعة ، ولا بصيرة له بها ، فاستحسنوا من البلاغة ما خرج عن حد الحقيقة إلى حيز الاستحالة، واحتجوا بمطالبة النابغة حسان بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ بالمبالغة في أوصافه ... ، والعارفون بما يجب فيها يقولون : إنما طالب النابغة حساناً بمبالغة حقيقية وهي تكثير الجفان والسيوف ، فاستدرك عليه التقصير عما يمكن فيما وصف ، ولم يطالبه بتجاوز غاية الممكن والخروج إلى ما يستحيل " [٢] .

---

(١) ينظر : الطراز ٤٥٦ .

(٢) منهج البلغاء وسراج الأدباء ١٣٣ ، ١٣٤ ، ط تونس .

ووافقه بعض العلماء المحدثين منهم الدكتور المطعني [١].

واستدل أصحاب هذا الرأي أيضاً بقول حسان بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ :

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

واستدلوا أيضاً بقول عمر ــ رضى الله عنه ــ معللا كون زهير أشعر الناس ، " إنه لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل في المنطق، ولا يقول ما لا يعرف ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه " [٢].

ب ـ الرأي الثاني :

يرى أصحاب هذا الرأي أن المبالغة من أجل المقاصد في الفصاحة وأعظمها في البراعة ــ وهو عكس الرأي السابق ــ وحجتهم أن أفضل الشعر أكذبه ، وأفضل الكلام ما بولغ فيه ، وأن المبالغة تضيف رونقا وبهاءً وبريقا للكلام وتعلي من قدره ؛ ومن هؤلاء ابن طباطبا العلوي وقدامة والرماني " فقد أشادوا بالمبالغة ، وخاصة هذا النوع الذي يخرج إلى حد الاستحالة أو المعدوم ، وكتبهم وآراؤهم تشهد بعلو كعبهم في فهم أشعار العرب وتذوق أسرار البلاغة ، فالأمدي وهو إمام النقاد قد ارتضى هذا النوع من المبالغة واستحسنه في الخروج إلى المحال " [٣] .

يقول الآمدي : " وقد يبالغ الشاعر في أشياء حتى يخرج منها إلى المحال ، ويخرج النوادر فيستحسن ولا يستقبح " [٤] .

---

(١) ينظر مجلة اللغة العربية جامعة أم القرى العدد الأول .
(٢) ينظر : علم البديع د. بسيوني فيود ١٩٨ .
(٣) محاضرات في علم البديع د / سعد الدين كامل ص ٩٢ .
(٤) الموازنة ١ / ١٤٩ .

واستدل أصحاب هذا الرأي بقول البحتري :

كلفتمونا حدود منطقكم

والشعر يكفي عن صدقه كذبه

فالشعر في نظر هؤلاء يقوم على التخيل والتصوير وعلى المبالغة في المدح والهجاء وغيرهما .

واستدلوا أيضا بالعيوب التي استدركها النابغة الذبياني على حسان بن ثابت في قوله :

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

فقد أخذ عليه النابغة ترك المبالغة وعدّ ذلك عيبا حيث قال : " أقللت أجفانك وأسيافك ، وقلت يلمعن في الضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدجى لكان أحسن ، وقلت يقطرن ولو قلت : يجرين لكان أحسن .

فنقد النابغة لحسان لأنه لم يجمع الجفنات ، والأسياف جمعا يدل على الكثرة ، والمقام هنا مقام فخر يستدعي المبالغة المقتضية للكثرة لا للقلة ، فعيب حسان أنه لم يستعمل اللفظ المؤدي للمعنى الذي يقتضيه المقام ، إذاً فقد جعل المبالغة من مقتضيات الأحوال ، وعدّ تركها عيباً من عيوب الكلام [١] .

ج - الرأي الثالث :-

وأصحاب هذا الرأي توسطوا بين الرأيين السابقين فقالوا بقبول المبالغة ما لم تتجاوز حدود العرف والعادة ولم تخرج على

---

(١) ينظر : علم البديع د / بسيوني فيود ١٩٧ .

تعاليم الدين الحنيف أي أنهم قبلوا ما كان معتدلاً منها ، ورفضوا ما جاوز العرف والعادة وما خرج عن نطاق الشريعة " ولو كانت المبالغة معيبة لبطلت الاستعارة والتشبيه وكثير من محاسن الكلام ولكان الذين مذهبهم ترجيح الصدق وهو أكثر الفحول كزهير وحسان والحطيئة يكرهون خيره ، ويجحدون فضله لكنهم بخلاف ذلك لأنهم قد استكثروا منه وقلما يخلو لهم شعر عنه ، فعائب المبالغة على الاطلاق غير مصيب وعائب الكلام الحسن بترك المبالغة غير مصيب، وخير الأمور أوسطها " [١].

مناقشة وترجيح :

والرأي الراجح من هذه الآراء يظهر بعد مناقشة تلك الأقوال

فمن قال برفض المبالغة وعدم قبولها وهو الرأي الأول فقد أخطأ ، وذلك لأن المبالغة " فضيلة عظيمة لا يمكن دفعها وإنكارها ، ولولا أنها في أعلى مراتب علم البيان لما جاء القرآن الكريم ملاحظاً لها في أكثر أحواله ، وجاءت فيه على وجوه مختلفة لا يمكن حصرها " [٢] ، إذاً فقد عاب من رفضها وردها على الإطلاق .

وأفند آراءهم وحججهم فأقول :

بالنسبة لقولهم : إن خير الكلام ما خرج مخرج الصدق من غير إفراط ولا تفريط ، فنحن موافقون على ذلك طالما كان هناك مراعاة لمقتضى الحال فالمنكر مثلا يؤكد له الكلام بأكثر من مؤكد ولم يقل أحد برد التوكيد لأن فيه زيادة على مجرد إيصال المعنى المراد ، : كذلك فإن الكلام ومقتضى الحال إذا اقتضى المجيء بالمبالغة لا يعد ذلك عيبا لأن البلاغة تقتضي مراعاة مقتضى الحال ،

---

(١) عقود الجمان ٢ / ١١٦ .
(٢) الطراز ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

فطالما أن المبالغة لم تخرج عن الصدق وكانت عبارة عن إيصال المعنى بطريقة مبالغ فيها لأن الموقف جلل يحتاج إلى ذلك التفخيم والتهويل ــ كما جاء في حديث القرآن عن يوم القيامة ــ أقول : طالما الحال يستدعي ذلك فلا كذب ولا رد ولا قبح لهذه المبالغة .

وأما قولهم : إن المبالغة يستخدمها من عجز عن التعبير بالمألوف والمعهود من الكلام وأن من يستخدم المبالغة يسد العجز الذي عنده ، فهذا مردود أيضا ، وأوضح دليل على بطلان هذا الزعم هو مجيء المبالغة في القرآن العظيم وفي أفصح الشعر ومن العديد من البلغاء الذين لا يمكن وسمهم بالعجز عن التعبير بالمألوف ، بل العكس هو الصحيح فقدرة المتكلم على التعبير عن المعنى المراد ومجيء كلامه مشتملا على المبالغة وغيرها من فنون الكلام هو دليل على أنه متكلم لسن وبرهان على بلاغته وفصاحته .

وأما قول حسان بن ثابت :

وإن أشعر بيت أنت قائله

بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فإن استدلالهم عليه ليس في موضعه ، فحسان يريد أن ينشر فضيلة الصدق في التعبير ، وينكر الكذب في القول سواء في المدح أم الفخر أم الهجاء ، والمبالغة المقبولة المستحسنة ليس فيها كذب ولا نفاق ، وإنما هي مجرد إيصال المعنى إلى الغير بأوضح وأوكد صورة من اللفظ .

وكذلك استدلالهم على قول سيدنا عمر رضى الله عنه في زهير ، فليس فيه رد للمبالغة ولا كراهية لها ،بل ربما إذا مدح الرجل من يستحق المدح وبالغ في مدحه وكان يستحق ذلك ، فقد

مدح الرجل بما هو فيه ، وهي صفة استحسنها سيدنا عمر ــ رضى الله عنه ــ في زهير ، وخير دليل على ذلك مدح الشعراء والبلغاء ووصفهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن نظر في ذلك وجد أنهم حاولوا مدحه صلى الله عليه وسلم بأبلغ وأوكد الكلام ، ومع ذلك فلم يستطيعوا أن يوفوه حقه ، صلى الله عليه وسلم ، ولم ينكر عليهم أحد مبالغتهم وتوكيدهم كمدحه صلى الله عليه وسلم .

إذاً فالرأي القائل برفض المبالغة وتركها وذمها رأي واضح الركاكة وغير مقبول .

وأما الرأي الثاني :-

وهو القائل بأن المبالغة من أجل المقاصد وأصحابه يقبلون المبالغة مطلقا ويقولون بأن أجود الشعر أكذبه فهو رأي مرفوض وغير مقبول أيضا وذلك لأنه ليس المراد بالكذب في الشعر هو الخروج عن الحقيقة والبعد عن الصدق ، " وإنما المراد بالكذب في الشعر : التخييل والتصوير لا ما هو نقيض الحق والصدق " [١].

وأما استدلالهم بقول البحتري : " والشعر يكفي عن صدقه كذبه" فهو أيضا المراد به التخييل والتصوير ، وإن كان يقصد البحتري الكذب الذي هو مناقض للحقيقة وضد الصدق فقوله مردود وليس دليلاً ولا لازماً .

وأما استدلالهم بنقد النابغة الذبياني لأبيات حسان بن ثابت ، فإن النابغة قد أحسن في هذا النقد لأنه في موضعه ، لأن المقام يقتضي إظهار الفخر والفروسية ومحاسن الصفات وهذا من دواعي المبالغة والتوكيد فترك حسان للمبالغة هنا ليس في موضعه ، ولكن

---

(١) علم البديع د. بسيوني فيود ١٩٨ وينظر أيضا شروح التلخيص والإيضاح " فن المبالغة " .

كل هذا لا يعني قبول المبالغة مطلقا ، إذا فالقول بقبول المبالغة واستحسانها على الإطلاق قول مردود ، لأن من المبالغة ما هو ممقوت ومعيب كقول ابن هانيء الأندلسي يمدح أحد الخلفاء حيث بالغ في مدحه فقال :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

ومن المبالغة الممقوتة والمستهجنة قول المتنبي :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وغير ذلك من الأشعار التي حوت على مبالغات غير مقبولة وخاصة العصر العباسي وما تلاه أما قبل ذلك فلا نكاد نجد سوى المبالغة المقبولة .

لهذا كله فالرأي القائل بقبول المبالغة مطلقا رأي غير سديد ويحتاج إلى صواب .

والرأي الراجح :

هو المذهب الثالث ، وأصحاب هذا الرأي هم الذين توسطوا بين الرأيين السابقين فقالوا بقبول المبالغة ما لم تتجاوز حدود العرف والعادة ولم تخرج على تعليم الدين الحنيف ، فقبلوا ما هو معتدل منها ورفضوا ما جاوز العرف وما استهجنه الدين .

وهذا الرأي هو الأولى بالقبول ، وذلك لأن الصدق فضله لا يجحد وحسنه لا ينكر ، فإذا جرت المبالغة على جهة الاعتدال والصدق فهي حسنة جميلة ، وإذا جاوزت ذلك إلى الغلو المستقبح

والإغراق المستفحش فهي مذمومة ومرفوضة .

وقد جاء القرآن الكريم بالمبالغة في أبهى صورها وأعلى مراتبها وأولاها بالقبول ــ كما سأوضح بعد ــ .

وبذلك يتضح أن المبالغة منها ما هو مقبول ومستحسن ، وهو الذي جاء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط فإن خير الأمور الوسط ، ومنها أيضاً ما هو مستهجن ومعيب كما سبق .

أقسام المبالغة

المبالغة في مصطلح علماء البيان : " هي أن تُثْبت للشيء وصفا من الأوصاف تقصد فيه الزيادة على غيره ، إما على جهة الإمكان أو التعذر أو الاستحالة " [١] فهي تفيد الزيادة لا محالة ، ومن خلال هذا التعريف يتضح أن المبالغة تنقسم إلى :

١. التبليغ :

وهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا وعادة ، وذلك مقبول ومحمود لأن فيه أداء المعنى بصورة زائدة ومؤكدة ، وهي في الوقت ذاته ممكنة ومقبولة عقلاً وعادة ، وذلك مثل قول امرئ القيس يصف فرسه بأنه مع كثرة عدوه ونشاطه إلا أنه لا يعرفه يقول :

فعادي عداء بين ثور ونعجة

دراكا فلم ينضح بماء فيغسل

ومنه قول المتنبي :

وأصرع أي الوحش قفيته به

وأنزل عنه مثله حين أركب

فهو يقول إنه يصرع الوحوش بفرسه ، وعندما تنتهي المصارعة وينزل من على فرسه تكون حالة فرسه شبيهة بحالته عندما ركبه في بداية الصيد ، أي أنه لم يلحقه تعب ولا إرهاق .

ومنه قول ابن الرومي في الهجاء :

---

(١) الطراز : ٤٥٥ .

ولو أن قصرك يا ابن يوسف ممتل

إبرا يضيق بها فناء المنزل

وأتاك يوسف يستعيرك إبرة

ليخيط قد قميصه لم تفعـــل

فقد بالغ في الوصف بخل المهجو وشحه ، ولكن كل ذلك ممكن عقل وعادة .

وأبلغ من كل ذلك تجده في آيات القرآن الحكيم ، في قوله تعالى : " **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** " (١)، فالقرآن يأمرنا بلين الجانب وحسن المعاملة مع الوالدين ، وبالغ في ذلك على طريق المجاز باستخدام هذه الاستعارة اللطيفة لتوكيد هذا المعنى وتمكين مفهومه ، والمقصود منه المبالغة في التواضع .

" وذكر القفال ــ رحمه الله ــ في تقريره وجهين : الأول : أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية فكأنه قال للولد : اكفل والديك بأن تضمهما إلى نفسك كما فعلا بك ذلك حال صغرك . والثاني : أما الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحيه ، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه ، فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه " (٢) .

ومنه قوله تعالى : " **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ** " (٣) .

---

(١) الإسراء : ٢٤ .
(٢) الفخر الرازي المجلد العاشر ١٩٢ .
(٣) النحل ١١٢ .

فقد بالغ في وصف الجوع والقحط وانعدام الأمن وشدة الخوف بهذه المبالغة اللطيفة حتى جعل الجوع والخوف لباساً لهذه القرية التي كفرت بأنعم الله وإضافة اللباس إلى الجوع والخوف قرينة على أنه مستعار إلى ما يكون من حالة إنسان وتلازم له هذه الصفات كملازمة اللباس لابسه وذلك بجامع التمكن والإحاطة والدوام للدلالة على أنه متمكن منهم ، فاستعير لذلك فعل الإذاقة ، ففي الكلام مجاز .

" فحصل في الآية استعارتان : الأولى استعارة الإذاقة وهي تبعية مصرحة ، والثانية: اللباس وهي أصلية مصرحة " (١) .

فقد جعل الجوع والخوف محيطان بأهل القرية ومتمكن ذلك منهم وملازم لهم ، وفي هذا ما فيه من شدة الألم والمبالغة فيه ، خاصة أن الطعام والملبس مما لا غنى لإنسان عنهما .

ومنه قوله تعالى : " **هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ** " (٢)، فقد بالغ في وصف العلاقة بين الرجل وزوجته حتى جعل الزوج لباساً لزوجته ، وزوجته لباساً له عن شدة احتياج كل منهما للآخر من ناحية كاحتياج الشخص للباس لكي يستتر بها ، ومن ناحية أخرى ففيه كناية عن الوئام والالتصاق كأنهما شيء واحد أو بمقام الملبوس من اللابس وهي مبالغة مقبولة ومستحسنة .

ومنه قوله تعالى : " **يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا** " (٣) . فالذهول والوضع في هذا الموقف الجلل ممكن عقلاً وعادة ، ولهذا حسنت المبالغة لبيان شدة

---

(١) التحرير والتنوير ج١٤ / ٣٠٧ .
(٢) البقرة : ١٨٧ .
(٣) الحج ٢ .

الموقف وهوله .

ففي الآية الشريفة تهويل لما يحدث في ذلك اليوم وأن ما يحدث فيه عظيم في الشر والرعب ، وفي الكلام كناية عن شدة الهول لأن الأم المرضعة أشد حرصاً على رضيعها من والده ومن باب أولى من جميع من سواه ، فإذا حدث لها الذهول وهو نسيان ما من شأنه أن لا ينسى دل ذلك على شدة التشاغل . " فأطلق ذهول المرضع وذات الحمل وأريد ذهول كل ذي علق نفيس عن علقه على طريق الكناية .. ، وهذا من بديع الكناية عن شدة ذلك الهول لأن استلزام ذهول المرضع عن رضيعها لشدة الهول يستلزم شدة الهول لغيرها بطريق أولى ، فهو لزوم لدرجة ثانية وهذا النوع من الكناية يسمى الإيماء " [١].

ومن التبليغ قول النبي ــ صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك " [٢] ، فإضافة الصيام إلى الله تعالى دون سائر الأعمال لقصد المبالغة في إظهار عظمة الصيام وشرفه وفيه إظهار لعظمة الثواب ، وفيه مبالغة أخرى وهي أن رائحة فم الصائم المتغيبة بسبب الإمساك عن الطعام والشراب أطيب من ريح المسك الذي هو أعطر الطيب .

ومن التبليغ قول حسان بن ثابت ــ رضي الله عنه ــ :

" يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

فالمعنى : أن هؤلاء الكرماء الممدوحين يأتي إليهم كثير من

---

(١) التحرير والتنوير الجزء ١٧ / ١٨٩ .

(٢) ينظر صحيح البخاري بحاشية السندي الجزء الأول ٣٢٤ .

الناس ، ولهذا فإن كلابهم قد تعودت على الناس فلا تهر على أحد مقبل ، فهذا شيء مألوف لها ، وهؤلاء الممدوحون لا يسألون القادم عن سبب مجيئه ولا عن شخصه ، فديارهم مفتوحة لإكرام الجميع ، وكل هذه المعاني مع ما فيها من مبالغة إلا أنها مقبولة عقلا وعادة .

ومن ذلك أيضا قول ابن دريد

والناس ألف منهم كواحد

وواحد كالألف إن أمرُ عنا

ففي الكلام مبالغة حيث جعل ألفا من الناس كالفرد الواحد في الإغناء ، وأن هذا العدد رغم كثرته كالواحد من البشر ، وأن الواحد بمنزلة الألف في كونه كافيا عنهم ، فإن في ذلك مبالغة في مدح الواحد من الناس لكونه أغنى عن الكثير لجمعه للأوصاف الحميدة ومكارم الصفات والأخلاق ، وفي الكلام أيضا ذم للكثير من الناس حيث كانوا في الإغناء لا يسدون مسد واحد رغم كثرتهم .

فكل هذه الأمثلة فيها مبالغة مقبولة ومستحسنة لأنها بعيدة عن الإغراق والغلو .

٣ - الإغراق :

وهو " ما كان الوصف المبالغ فيه ممكنا عقلا ممتنعا عادة " [١] ، وذلك كما في قول عمير بن الأيهم التغلبي :

ونكرم جارنا ما دام فينا

ونتبعه الكرامة حيث مالا

فمتابعة الجار بالإكرام حيث مال وذهب وصف ممكن عقلا

---

(١) ينظر بغية الإيضاح ٤ / ٤١ .

ولكنه ممتنع عادة ، وفيه كما ترى مبالغة مقبولة لأن العقل لا يرفضها ، وهي مستحسنة لأنها في مقام يقتضي ذلك وهو الفخر والمدح .

ومن ذلك أيضا قول حسان بن ثابت رضى الله عنه في وصف الحرب :

تشيب الناهد العذراء فيها

ويسقط من مخافتها الجنين

فشيب العذراء من خوف ورهبة الحرب ممكن عقلا ولكنه ممتنع عادة ، أما سقوط الجنين من شدة هول الحرب فهو إغراق لأنه مستبعد وغير ممكن عقلا وعادة .

ومن الإغراق قول الشاعر :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم

قالوا لأمهم بولي على النار

فالمقام مقام هجاء والشاعر بالغ في هجاء القوم وذمهم بالبخل الشديد ، حتى إنهم عندما يرون الضيف يقولون لأمهم : بولي على النار حتى لا يهتدي الضيف إليهم ، وكل ذلك ممكن عقلا وممتنع عادة .

ومن الإغراق قول امرىء القيس يصف أنفاس محبوبته عند النهوض من النوم :

كأن المدام وصوب الغمام

وريح الخزامي ونشر القطر

يعل به برد أنيابهـــــا

إذا غرد الطائر المستحر

فوصف صاحبته بهذه الأوصاف وادعاؤه أنها متصفة بها مبالغ فيه ممكن عقلاً وإن امتنع عادة ، ومن ذلك قول المتنبي :

كفى بجسمي نُحولا أنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ومنه قول الفرزدق يمدح زين العابدين على بن الحسين عليه السلام :

يكاد يمسكه عرفان راحته

ركنُ الحطيم إذا ما جاءِ يستلِم

وأظن أن القرآن الكريم قد حوى كثيرا من الأخبار والقصص المشتملة على مبالغات ممتنعة عادة لأن البشر لم يرونها ولم يعرفوا مثيلاً لها في عاداتهم ، ولكنها مقبولة عقلا لكونها من عند الله عز وجل القادر القدير المقتدر ، خالق الكون من عدمه ، فعندما تقرأ وصف القرآن للجنة مثلا ، العادة لا تستوعب ذلك لأن النفس البشرية لم تشاهده ، ولكن العقل يقبله ويقره لكونه من عند الله تعالى ، وكذلك كل الأمور الغيبية من البرزخ والإسراء والمعراج .. الخ .

٣ ـ الغلو : ـ

وهو ما كان الوصف المبالغ فيه ممتنعاً عقلاً وعادة .

والمقبول من الغلو ثلاثة أنواع هي : ـــ

أ ـــ أن يقترن به ما يقر به من الصحة والإمكان ، ويخرجه

عن الامتناع ، وذلك كلفظ " كاد " ، و " لو " و " لولا " ونحو ذلك ، ومثل ذلك قوله تعالى : " يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ " (١) فإضاءة الزيت دون أن تمسه نار ممتنع عقلاً وعادة ، ولكن دخول لفظ " يكاد " قربه من الصحة وجعله ممكناً حيث إن الإضاءة لم تقع ولكنها قربت من الوقوع ٠

ومنه قوله تعالى : " يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ " (٢)، فالكلام هنا عن حالة البرق الشديد ٠

ومنه قوله تعالى : " أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا " (٣) ، وهذا التمثيل من قبيل تشبيه حالة معقولة بحالة محسوسة ، ووجه الشبه هو ما حف بأعمالهم من ضلال الكفر الحائل دون حصول ما يبغونه ويرجونه ، وجمع الظلمات للدلالة على الكثرة وهو الشدة ، فالجمع كناية لأن شدة الظلام يحصل من تظاهر عدة ظلمات " (٤) ، وكل ذلك فيه ما فيه من المبالغة التي أضفت على الكلام رونقاً وبهاء ٠

ومنه قوله تعالى : " وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ " (٥)٠

والآية جاءت في سياق الحديث عن ما تنطوي عليه نفوس الكفار من حقد وغيظ وحسد للنبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ " ولما كان الزلق يقضي إلى السقوط ٠٠ أي يسقطونك ويصرعونك ٠٠٠

---

(١) النور ٣٥ ٠
(٢) النور ٤٣ ٠
(٣) النور ٤٠ ٠
(٤) التحرير والتنوير ج١٨ / ٢٥٥ ٠
(٥) القلم ٥١ ٠

فقد جعل الإزلاق بأبصارهم على وجه الاستعارة المكنية حيث شبهت الأبصار بالسهام ورمز إلى المشبه به بما هو من روادفه وهو فعل يزلقونك مضارع زلق إذا نحاه عن مكانه [١] .

والشعر العربي فيه من الغلو المقبول والمستحسن الكثير فمن ذلك قول البحتري :

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما

في وسعه لسعى إليك المنبر

فإن سعي المنبر إلى الممدوح ممتنع عقلاً وعادة ولكنه قربه من الإمكان بذكر " لو " التي هي حرف امتناع لامتناع ومنه قول زهير في المدح :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

ومنه قول المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فإن بلوغ الإنسان هذا المبلغ من النحافة والنحول على النحو الذي لا يراه المتكلم لا يجوز وهو ممتنع عقلا وعادة ، ولكنه قربه بذكر " لولا " إذ هي حرف امتناع لوجود فقد امتنع عدم الرؤية لوجود المخاطبة ، وهذا ما قرب الادعاء من الصحة وجعله ممكنا .

ومنه قول الشاعر يصف فرسا :

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩ / ١٠٦ ، ١٠٧ .

ويكاد يخرج سرعة من ظله

لو كان يرغب في فراق رفيق [١]

فإن خروج الفرس من ظله أمر مستحيل عقلا وعادة ولكنه قربه بذكر لفظ " يكاد " .

ب – أن يتضمن نوعا حسنا من التخييل فيقربه ذلك من الصحة والإمكان ، وذلك مثل قول المتنبي :

عقدت سنابكها عليها عثيرا

لو تبتغي عنقا عليه لأمكنا

يريد أن يقول : إن الغبار الكثيف الذي أثارته حوافرُ الخيل تراكم حتى يمكن السير عليه من شدة كثافته وغزارته ، وهو على هذا ممتنع عقلا وعادة ، ولكن لتضمنه تخيلاً حسنا أوهم السامع أن الغبار لكثافته صار كالأرض يمكن السير عليه ، هذا التخييل ووجود " لو " قر ب الوصف من الصحة والإمكان .

ومنه قول الشاعر :

يخيل لي أن سمر الشهب في الدجى

وشدت بأهدابي إليهن أجفاني [٢]

فهناك خيال صريح في لفظ " يخيل " وهناك خيال مفهوم وهو ادعاؤه أن الشهب قد سمرت في الدجى ثم ربط هذا الخيال بخيال آخر هو أن أجفانه مشدودة بأهدابه إلى هذه الشهب التي تسمرت وتحجرت في مكانها فلا تتحرك بل ثبتت ثبات الشهب الموثقة بالحبال

---

(١) هو لأبي محمد عبد الجبار بن أبي بكر المعروف بابن حمديس الصقلي .
(٢) هو لأحمد بن محمد المعروف بالقاضي الأرجاني .

والمسامير . فهو قد " جمع فيه بين الشيئين الموجبين للقبول والتقريب ، وهما ما جرى بهما مجرى "كاد" ، والتخييل الحسن ، فقوله : يخيل لي هو الجاري مجرى كاد فإنه جعل الأمر توهما لا حقيقة ، وأما التخيل الحسن فهو ما ذكر من تسمير الشهب وشد أجفانه إليها بأهدابه ، وجعل الأهداب بمنزلة الحبال ، ولا يخفي ما في هذا من التخيل الحسن " [١] .

ج ــ إخراج المبالغة المغالي فيها مخرج الخلاعة والهزل ، وذلك مثل قول الشاعر :

أسكر بالأمس إن عزمت على

الشرب غدا إن ذا العجب

فالسكر المدعي على هذه الصفة ممتنع عقلا وعادة ، ولكن الذي قربه من الإمكان وجعله مقبولاً هو خروجه مخرج الخلاعة والهزل ، وهو مقام يسوغ فيه ما لا يسوغ في مقام الجد ، ويجعله حسنا .

والنوع الثاني من الغلو وهو المردود : ـ

هو ما كان الوصف غير ممكن لا عقلا ولا عادة وخلا من تلك الأمور التي تقر به من الإمكان والقبول .

وذلك مثل قول الشاعر الأندلسي : ــ ابن هانيء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار

فاحكم فأنت الواحد القهار

---

(١) خزانة الأدب ج٢ / ١٦ .

وكأنما أنت النبي محمد

وكأنما أنصارك الأنصار

فالشاعر قد خالف الشرع والعقيدة الصادقة بوصفه للممدوح بصفات لا يوصف بها سوى الخالق عز وجل ، ثم إنه شبه الممدوح بالنبي صلى الله عليه وسلم وهذا غير جائز أيضاً .

ومنه قول أبي نواس :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تخلق

وقوله أيضاً :

حتى الذي في الرحم لم يك صورة

لفؤاده من خوفه خفقان

"ولو قدرنا " يكاد " في البيتين لكان من الغلو المقبول " [١]

ومنه قول المتنبي :

يرتشفن من فمي رشفات

هن فيه أحلى من التوحيد

وقوله أيضاً :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي

إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

وكل ذلك بالإضافة إلى أنه مرفوض بلاغة فإنه مرفوض

---

[١] علم البديع د / بسيوني فيود ٢٠٣ .

شرعاً لأن فيه خروج على تعاليم الدين الحنيف .

وقوع المبالغة في القرآن الكريم : -

إن المتأمل لكتاب الله تعالى يجد أن المبالغة بمعنى : تقوية المعنى وأدائه على وجه متمكن من النفس جاءت في القرآن الكريم ، وذلك لأن القرآن الكريم جاء بلسان عربي مبين ، فقد ، " ضرب العرب المثل في القلة والحقارة بثلاثة أشياء في النواة والنقير وهي النقرة التي في ظهر النواة ومنها تنبت النخلة والقمطير هو القشر الرقيق فوقها [١] .

والقرآن الكريم جاء مشتملاً على ما اشتمل عليه كلام العرب الأفحاح في نظمهم وبيانهم وبديعهم ، واقرأ قوله تعالى : " **وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً** " [٢] ، " **وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً** " [٣] ، " **مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** " [٤] .

" النقير : النقرة في ظهر النواة منها تنبت النخلة ، والمعنى أنهم لا ينقصون قدر نبت النواة ، والفتيل عن ابن السكيت : الفتيل ما كان في شق النواة ، والقطمير : القشرة الرقيقة على النواة ، وهذه الأشياء كلها تضرب أمثالاً للشيء التافه الحقير أي لا يظلمون لا قليلاً ولا كثيراً " [٥] .

" وكذلك جاء في القرآن الكريم مبالغة في النفي مثل قوله تعالى : " وقتلهم الأنبياء بغير حق " وظاهر هذا القول يقتضي أن قتلهم قد يكون بحق فما الوجه حينئذ ؟ فالجواب أن للعرب في ما

---

(١) حاشية زادة ج٢ / ٤٢ .
(٢) النساء ١٢٤ .
(٣) الإسراء ٧١ .
(٤) فاطر ١٣ .
(٥) الفخر الرازي ٥ / ١٣١ .

جرى هذا المجرى من الكلام عادة معروفة ومذهباً مشهوراً عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم ، ومرادهم بذلك المبالغة في النفي وتأكيده، فمن ذلك قولهم : فلان لا يرجى خيره ، ليس يريدون أن فيه خيرا لا يرجى وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه، ومثله : قلما رأيت مثل هذا الرجل وإنما يريدون أن مثله لم ير لا قليلاً ولا كثيراً " (١) .

ففي قوله تعالى : " ويقتلون النبيين بغير حق " مبالغة في النفي ، لأنه تعالى لما قال : " ويقتلون النبيين بغير حق " دل على أن قتلهم لا يكون إلا بغير حق ثم وصف القتل بما لابد أن يكون عليه من الصفة وهي وقوعه على خلاف الحق " (٢) .

وخلاصة القول أن القرآن الكريم جاء للعرب وبلسانهم نطق فاشتمل على ما اشتمل عليه كلامهم من محسنات مستحبة ليس فيها غلو ولا إغراق ممقوت ، فكذلك المبالغة جاءت في القرآن الكريم على أكمل وجه وفي أبهى صورة ، فقد جاءت لتأكيد المعنى وتقريره وفقا لمقتضى الحال والسياق .

ومن أوضح ذلك قوله تعالى : " **وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** " (٣) .

ومن ذلك قوله تعالى : " **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ** " (٤)، فانظر

---

(١) محاضرات في علم البديع د / سعد الدين كامل شحاته ٩٤ .
(٢) انظر أمال المرتضي ١ / ٢٢٨ .
(٣) إبراهيم ٤٦ .
(٤) النور ٣٥ .

إلى تعديد هذه الجمل ومجيئها من غير حرف عطف كيف أفادت المبالغة في حال الموصوف ، وأشادت من قدره ورفعت من حاله ، وأبانت المقصود بها على أحسن هيئة " [١] .

ومنه قوله تعالى : " **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** " [٢] .

فقد أظهرت هذه الأوصاف التي جاءت في نعت النور والظلام أظهرت المقصود من ذلك وبالغت في إظهاره على نحو بديع ونظم عجيب مستحسن .

ومنه قوله تعالى : " **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** " [٣]، والآية في سياق التوصية بالوالدين ولو سيق الكلام مجرداً من تلك المبالغة اللطيفة والاستعارة الجميلة فقال مثلاً تواضع لوالديك لرأيت الكلام خالياً من رونقه وعارياً من بلاغته .

ومنه قوله تعالى : " **فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ** " [٤] انظر كيف بالغ في وصف ما أصابها من قحط وسلب للأمان بتلك المبالغة التي أدت المعنى المراد على أكمل وجه وأوضح صورة ، وقد سبق الحديث عن ذلك .

وأنظر إلى ما قاله العلماء في بعض المبالغات القرآنية ، يقول الزمخشري رحمه الله في قوله تعالى : " **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** " [٥]، يقول : " فإن قلت : ما معنى قوله : " جناح

---

(١) الطراز ٤٥٨ .
(٢) النور ٤٠ .
(٣) الإسراء ٢٤ .
(٤) النحل ١١٢ .
(٥) الإسراء ٢٤ .

الذل " قلت : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك ، كما قال : " واخفض جناحك للمؤمنين " ، فأضافه إلى الذل كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى : واخفض لهما جناحك الذليل أو الذلول ، والثاني : أن تجعل لذله لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيد الشمال يدا وللقرة زماما " مبالغة " في التذلل والتواضع لهما .

من الرحمة : من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس ، ولا تكتف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها ، وادع الله أن يرحمهما رحمته الباقية واجعل ذلك جزاء لرحمتهما عليك في صغرك وتربيتهما لك " [١] .

فانظر كيف صاغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة طائر متذلل عندما يعتريه الخوف من شيء فهو يخفض جناحه متذللاً خائفاً .

فهذه الاستعارة المكنية وذاك التخييل الحسن جعل للكلام رونقا لا يستفاد بدونه .

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ " وصيغ التعبير عن التواضع بتصويره في هيئة تذلل الطائر عندما يعتريه خوف من طائر أشد منه ، إذ يخفض جناحه متذللا ، ففي التركيب استعارة مكنية والجناح تخييل ، ومجموع هذه الاستعارات تمثيل ، والتعريف في الرحمة عوض عن المضاف إليه ، أي من رحمتك إياهما ، ومن ابتدائية أي الذل الناشيء عن الرحمة لا عن الخوف أو عن المداهنة " [٢] ، ويقول أيضاً في قوله تعالى بعد هذه الآية :

---

(١) الكشاف ٣ / ١٧٥ ط دار المصحف .

(٢) التحرير والتنوير ج١٥ / ٧١ .

" فإنه كان للأوابين غفوراً " يقول : " صيغ له مثال المبالغة "أواب " لصلاحية المبالغة لقوة كيفية الوصف وقوة كميته ، فالملازم للامتثال في سائر الأحوال المراقب لنفسه أواب لشدة محافظته على الأوبة إلى الله تعالى " (١) .

ويقول الزمخشري أيضاً في قوله تعالى : " **وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ** " (٢) ، " وإن عظم مكرهم وتبالغ في الشدة ، تضرب زوال الجبال منه مثلا لتفاقمه وشدته ، أي : وإن كان مكرهم مسوى لإزالة الجبال " (٣) .

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ : " أي هو مكر عظيم لتزول منه الجبال لو كان لها أن تزول أي جديرة فهو مستعمل في معنى الجدارة والتأهل للزوال لو كانت زائلة ، وهذا من " المبالغة " في حصول أمر شنيع أو شديد في نوعه " (٤).

وكذلك أيضا ما قاله المفسرون وغيرهم في مثل تلك الآيات القرآنية كقوله تعالى :"**وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً** " (٥) ، وقوله تعالى : " **مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** " (٦) ، وقوله تعالى : " **فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً** " (٧)، ما قاله العلماء في ذلك يستفاد منه إثبات المبالغة في القرآن العظيم .

وفي قوله تعالى : " وما أرسلناك إلا كافة للناس " نقل بعض النحاة كابن مالك أن الزجاج جعل التاء في كافة للمبالغة كتاء

---

(١) السابق ج١٥ / ٧٥ .
(٢) إبراهيم ٤٦ .
(٣) الزمخشري ٣ / ١٢٥ .
(٤) التحرير والتنوير ١٣ / ٢٥١ .
(٥) الإسراء ٧١ .
(٦) فاطر ١٣ .
(٧) النساء ٥٣ .

العلاَّمة [١].

إذا فالمبالغة في القرآن العظيم موجودة ومعترف بها من كثير من العلماء الذين يعتد بكلامهم ، فبدلاً من إنكارهم كان واجبا إظهار قيمتها وفضلها في الكلام .

كما أن المبالغة مثلا في صيغ المبالغة مثل فعَّال ، فعول ، فعيل وغيرها إذا وردت في القرآن الكريم ينظر إليها على أساس من تقع عليه أي كثرة من تشملهم تلك الصيغ فمثلاً قوله تعالى : " إن ربك من بعدها لغفور رحيم " صيغة فعول ، وفعيل صيغتا مبالغة منظور فيهما إلى كثرة من تقع عليهم المغفرة والرحمة .

بل إن المبالغة في القرآن الكريم تتنوع أسلوبها فتارة تأتي صيغة من صيغ المبالغة لتفيد ذلك ، وتارة تأتي استعارة بالكناية ، وغير ذلك من الصيغ والأساليب التي حواها القرآن العظيم .

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن المبالغة في القرآن العظيم موجودة ، وجاءت في أسمى صورة وأوضح بيان ، وكانت إعجازاً ، وتطلبها السياق واقتضاها المقام فكانت من البلاغة القرآنية المعجزة والله أعلم .

ومن الواضح أن الغيرة على كتاب الله تعالى هي التي دفعت بعض العلماء قديماً وحديثاً [٢] ، إلى إنكار وجود المبالغة في القرآن العظيم ، ظنا منهم أنها تنافي الحقيقة كما هو حالها في كثير من كلام البشر شعراً كان أو نثراً ، ولكن وجدت المبالغة في القرآن العظيم في أرقي صورة وأوضح بيان ، ووجدت فيها صدقا وقوة في التعبير والأداء ، ووفاءً بالمعنى المراد .

---

(١) ينظر شرح التسهيل ٢ / ٣٣٧ .

(٢) ينظر مجلة كلية اللغة العربية جامعة أم القرى ، العدد الأول .

وانظر إلى قوله تعالى حكاية : " **فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ** ... " [١]، حيث حلَّ الحرف " في " محل الحرف " على " ، وكان المعنى ــ والله أعلم ــ ولأصلبنكم على جذوع النخل ، ولكن من حنق فرعون وشدة غيظه وقمة ثورته على هؤلاء المؤمنين جعل جذوع النخل وعاءً لهم .

فهل يعقل أن يكون هذا التعبير على حقيقته بمعنى أن التصليب يكون في جذوع النخل ، بحيث يشق المتوعد النخل ويضع داخلها من توعده بالعذاب ، أقول : هذا المعنى لا يعقل ولا يمكن أن يكون هو المراد ، وحتى لو سلمنا جدلاً بإرادة هذا المعنى وعدم وجود مبالغة فيه فإن ذلك لا يعد تصلبا ، ويكون الكلام خلقاً من القول ولغطاً تعالى كلام الله عن ذلك .

ثم إن المبالغة موجودة فعلاً وواقعاً في القرآن الكريم وهذا ما قرره كثير من العلماء الثقاة ، فبدلاً من إنكارها يجب توجيه الجهود إلى إظهار بلاغتها ، وكيف كانت جزءاً من البلاغة القرآنية المعجزة .

وانظر إلى صيغ المبالغة في القرآن الكريم كيف يمكن إنكارها، وبم نسميها إذاً لو قلنا إن المبالغة غير موجودة في القرآن، فقوله تعالى : " **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى** " [٢] ، كثرة الغفران لكثرة المذنبين التائبين ، ولبث الأمل في النفس البشرية الضعيفة أمام الخطايا والإغراءات ، حتى إذا ما ارتكب المرء وزراً تذكر أن الله تعالى غفار " كثير الغفران ، واسع العطاء فلا يمنع الذنب إنساناً من الرجوع إلى ربه كما لا يمنعه تكرار

---

(١) طه ٧١ .
(٢) طه ٨٢ .

الذنب من تكرار التوبة . وجملة " وإني لغفار " الخ استطراد بعد التحذير من الطغيان في النعمة بالإرشاد إلى ما يتدارك به الطغيان إن وقع بالتوبة والعمل الصالح [١] .

وكذلك قوله تعالى : " **فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ** " [٢] ، إذا تدبرت السياق وجدت صيغة المبالغة وقعت موقعها المؤثر حيث سبحانه ، يبدي ويعيد وكل يوم هو في شأن ، ويمحو ما يشاء ويثبت ، فجاءت في أفخم معانيها .

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور ــ رحمه الله ــ : " ثم زيل ذلك بصفة جامعة لعظمته الذاتية وعظمة نعمه يقول : " فعال لما يريد " أي إذا تعلقت إرادته بفعل فعله على أكمل ما تعلقت به إرادته لا ينقصه شيء ولا يبطيء به ما أراد تعجيله ، فصيغة المبالغة في قوله : " فعال " للدلالة على الكثرة في الكمية والكيفية " [٣].

وهكذا حال المبالغة في جميع مواضعها في القرآن العظيم تجد فيها قوة في التعبير وصدقا في التصوير ومطابقة لمقتضى الحال .

---

(١) التحرير والتنوير ج١٦ / ٢٧٦ .
(٢) البروج ١٦ .
(٣) التحرير والتنوير ج٣٠ / ٢٥٠ .

الخاتمة

إن هذه الدراسة البلاغية ـ المتواضعة ـ لأسلوب المبالغة في القرآن العظيم ألقت مزيداً من الضوء على هذا الموضع الشائك حيث تجد كثيراً من الأبحاث البلاغية تنأي عن النقاط التي يكون فيها خلافاً ، وكان الدافع لي في هذه الدراسة هو خدمة كتاب الله عز وجل، ثم الوقوف على آراء العلماء في هذا الموضوع ، ثم ترجيح واحدا من تلك الآراء .

وقد هُديت في تلك الدراسة إلى النتائج الآتية :

١ ـ أكد هذا البحث على أن المبالغة موجودة في القرآن العظيم ، وهو ما قرره كثير من العلماء ومنهم الآمدي ، والبحتري ، وقد سبقهما الزمخشري وغيره .

٢ ـ إن المبالغة في القرآن الكريم تعد جزءاً من البلاغة القرآنية المعجزة ، وتجد فيها صدقا وقوة في التعبير ، وفخامة في الأسلوب ، ووفاء بالمعنى .

٣ ـ إن العيوب التي أخذت على المبالغة في كلام البشر كالكذب ، وتغيير الواقع ، ومجافاة الحقيقة ، كل تلك العيوب لا تجد شيئاً منها في المبالغة في القرآن العظيم ، تعالى الله وكلامه عن ذلك علوا كثيراً .

٤ ـ إن القواعد والأسس التي وضعها المتأخرون للمبالغة مثل الغلو الفاحش ، والإغراق الممقوت ، لا يمكن أن نطبقها على البيان القرآني الحكيم ، فكل ما في القرآن هو من باب قوة التعبير ومتانة الأسلوب وإيصال المعاني في أبلغ صورة وأدق تصوير .

٥ ــ إن الخلاف في بعض المسائل يوسع الأفق وينمي الفكرة ويعمقها ويرجح رأيا على آخر طالما كان ذلك بدون سفسطة ولا إساءة .

٦ ــ إن الدافع من وراء تلك الدراسة هو خدمة كتاب الله تعالى والدفاع عنه وإظهار فخامة المبالغة فيه .

والله من وراء القصد وهو الهادي سبحانه إلى الصراط المستقيم

المصادر والمراجع

١ ــ آمال المرتضى ٠ غرر الفوائد ودرر القلائد تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار الفكر العربي ١٩٩٨م ٠

٢ ــ التحرير والتنوير ط الدار التونسية للنشر والمؤلف الشيخ الطاهر بن عاشور ٠

٣ ــ حاشية شيخ زادة على تفسير البيضاوي ط دار صادر بيروت ٠

٤ ــ خزانة الأدب للأستاذ عبد القادر البغدادي ــ تحقيق عبد السلام هارون ــ مكتبة الخانجي بالقاهرة ٠

٥ ــ شرح التسهيل ــ ط دار هجر للطباعة والإعلان ــ الطبعة الأولى ــ ١٩٩٠م ــ ١٤١٠هـ ٠

٦ ــ صحيح البخاري بحاشية السندي ط دار المعرفة بيروت لبنان ٠

٧ ــ الصحاح للجوهري ــ تحقيق أحمد عبد الغفور عطا ــ ط / دار العلم للملايين بيروت ٠

٨ ــ الطراز للعلوي ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨٠م ٠

٩ ــ علم البديع د٠ بسيوني فيود ٠

١٠ــ عقود الجمان ٠

١١ــ الفخر الرازي ط دار الفكر الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ١٩٨١م

١٢ــ الكشاف للزمخشري ط دار المصحف ٠

١٣ ــ لسان العرب لابن منظور ــ ط دار المعارف .

١٤ ــ المعجم الوسيط .

١٥ ــ منهج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني تحقيق محمد الحبيب بن الخواجة ط دار الكتب الشرقية .

١٦ ــ محاضرات في علم البديع د / سعد كامل ١٤٢٠هـ .